وليّ الجبل

ترجمة رواية "الوالي ن وذرار" لصاحبها بلعيد آث اعلي من الأمازيغية إلى العربية

« lwali n wedar » the Amazigh story of the author Belaid ait aali □

ترجمه: أ. بوجمعة عزيري

الرّقم التعريفي للمقال: DOI: 10.33705/1111-000.009.001

مناسبة الرواية

إنه لشيء مثير للدهشة ياسيدي...سبعة وسبعون وليّا يشرفون على عرشنا، هذا العرش الذي أعرفه حق المعرفة، إنهم محور اهتمام الخاص والعام من الصباح إلى المساء، وأنا أحلف باسمهم ... كل هذا يا سيدي ولا يخطر ببال أحد أن يعرفني بواقعهم وحقيقة حياتهم، لا أحد روى لي قصة وليّ من هؤلاء الأولياء ولا قال لي كلمة واحدة عن حياتهم ومعيشتهم.

في الواقع، بمجرد ما يحلف الفرد "أحق الشيخ الفولاني..."، سواء التزم بقوله أم خالفه، ينصرف باله إلى شؤون الدنيا تنسيه ذلك الشيخ، فلا يأبه بنمط معيشته ولا بطريقة مماته ... فالانشغال كل الانشغال ينصب فيما سيأتي به الغد، أما ما مضى فيصدق عليه قول القائل " اللي فات مات"... وتبقى صورة الشيخ ذكرى عالقة في الذهن لا أكثر ولا أقل.

لكن قد يحدث ما لم يكن في الحسبان... شاء الله أن أسمع حكاية أحد هؤلاء المشايخ، حكاية أكبر الأولياء الصالحين الذين عرفتهم جبالنا، ومن حيث لا أدري. رواها لي رجل التقيته صدفة، لم أصدق نفسي.

حدث اللقاء مع الراوي في مدينة لخميسن وذرار (الواقعة فعلا وراء الجبل) وطأتها قدماي لأول مرة رغم أن أغلبية أبناء المنطقة يأتون إليها من كل حدب وصوب. يوم الخميس هو اليوم الذي يعقد فيها سوقها المعروف من الجميع، وسمعت في شتى المناسبات الناس يتحدثون عن هذه المدينة. لم يكن لي شأن في زيارتها: في الواقع لست الوحيد الذي جاب المدن البعيدة وقطع البحار وسافر إلى كثير من البلدان لكن في بلاده لا يعرف سوى عرشه والقرى المجاورة وربما ليس أتمّ المعرفة.

في هذه الأيام، خطَرَ في بالي أن أكتشف مدينة لَخْمِيس. قصدتها يوم أربعاء في الصباح الباكر بِنيّة قضاء الليلة فيها وفي صبيحة يوم الخميس أذهب إلى سوقها وأجد ما يكفيني من الوقت للتجول واقتناء حاجاتي. سافرت مشْيا على الأقدام متيقِّنا من الوصول إلى المدينة في آخر النهار على الأقل ولو أبطأت

في المشي. لم يكن بعد المسافة عائقا أمامي فأنا لا أبالي بطول المشي: كلّما أقْطع شوطا من الطريق أُحس بقدمي تتسرحان وتزدادان في السرعة، تمرنت كثيرا على المشي وقد أفادتني الخدمة العسكرية في هذا الميدان -على الأقل في هذا الميدان-. قُبيل الزوال وجدتُني قد أشرفت على الجبل الذي بمجرد عبوره أصِل إلى الجهة الأخرى التي تحجب عني رؤيتها.

نظرت من أعلى الجبل فرأيت وادياً غير بعيد عن السفح، وهنالك على ضفته الأخرى بدا لي منظر مدهش: جموع غفيرة من الناس يزيد عددهم عن عدد الناس في سبعة أسواق مجتمعة في مكان واحد. ورغم بعد المسافة، تيقنت أنها قرية كبيرة جدا، بدت منازلها تنبت في بطحة قرب ضفة الوادي ثم تصعد نحو الأعلى، مصفوفة واحدة تلو الأخرى حتى بلوغ قمة جبلية وربما امتدّت إلى الجهة الأخرى منحدرة نحو الأسفل.

ظهرت لي قبة منزوية في طرف شريط المنازل المتجانسة منعزلة عنها قليلا...لم أفق من الدهشة إلى أن طرق أذني صوت طبل منبعث من وسط جموع الناس، صوت خافت...أهذا عرس؟ ما نوع هذا العرس الذي يجمع هذا العدد الهائل من الناس.. حتى ولو كان عرس قايد أو ملك؟

كنت أرى الناس يتحركون حول تلك القبة مثل النمل من كثرتهم واكتظاظهم... لم أر قط مثل هذا العدد في أي حضرة أو زردة[1]. سبق لي أن شاركت في زيارة جدي بويفلاحن[2] بمناسبة عاشوراء لكن ما أراه اليوم لم أتذكر أنني رأيته في حياتي... لذا بقيت مندهشا، مسمَّرا في مكاني برهة من الزمن...

يقال إن الإنسان الصالح يلاقيه الله بمثله. ها هو آت قطيع من المعز يسوقه شاب عبر طريق السيارات. سلَّم علي الراعي وبادرته بالمثل ثم سألته عن الطريق الأقرب للوصول إلى القرية الغاصة بالناس. أجابني بسرور كبير ورحب بي عندما أدرك أنني غريب عن الديار. قال وهو يراني مندهشا لما يتموَّج من حشود الناس:

ألا تعرف الشيخ أحمد وعلي " الله ينفعنا ببركته "؟ ألا تعرف تلك القرية المسماة تيزي ن تفلكوث[3]؟

عندما أجبته بالنفي اقترب مني وأخذ يوضح ويؤكد ما كان يجول في خاطري من الأفكار. تلك القبة قبة الوالي الصالح أحمد وعلي هي السبب... إنه الأكبر من كل الأولياء المعروفين في هذه الجبال. وتلك الجموع أتت بمناسبة الزردة التي أقيمت على ذكره وما هم إلا أولى الزوار أما الأغلبية فسيأتون يوم الغد الخميس الذي تبلغ فيه الزردة أوجها. أخيراً، دلني الراعي الشاب على أقرب الطرق لبلوغ القرية في أسرع وقت، قبل غروب الشمس. أهديت له لفافة تبغ فودعني فرحا وسار وراء قطيعه في الاتجاه المعاكس.

أحسست بالتعب وأنا أنحدر في اتجاه الوادي، لم أشعر بمثله عندما كنت أصعد نحو قمة الجبل، ربما هذا راجع إلى تعودي المشي في العقبات والمسالك الصاعدة. وعند غروب الشمس، قطعت الوادي وعدت إلى المشي صعودا. وفي بضع دقائق التحقت بجموع الناس.

الولوج في أزقة قرية من قرانا ليس بالأمر الهيّن لرجل غريب في الأوقات العادية: كل الأنظار تتجه نحوه وإن تكن بعض النساء يبادرنه بعبارات الترحيب لكنّه يشعر برقابة خفية من الذكور وبخطر الانقضاض عليه إن تمادى في الحديث معهن أو أمعّن النظر في وجوههن. لكن في يوم مثل ذلك اليوم الذي أقيمت فيه الزردة يمكنك أن تتجول في أزقة القرية ذهابا وإيابا ولا أحد يأبه بك كأنك في مدينة كبيرة... القرية تصبح مكانا للزوار الذين يؤمّونها من كل حدب وصوب.

أول ما قابلني قبة الشيخ أَحمدْ وَعْلي، كأنها تقف في وجه الغرباء لتذود عن أبنائها وتسهر على أمنهم ثم بالقرب منها منازل آل أَحمدْ وَعْلي من سلالة المرابطين، تختلف عن منازل القرية الأخرى المتواضعة إنها تشبه في هندستها وفخامتها تلك الفيلاّت التي نجدها في المدن الكبرى كالجزائر وباريس فهي مبنية على حافة الطريق والسيارات مصفوفة في خط مواز لواجهاتها. حقيقة، إنها تذكِّرني بشوارع باريس الفخمة.

ضجيج الناس ونغمات الزرنة ودق الطبل أعاد إلى ذاكرتي جو حفل عاشوراء الذي سبق لي أن عشته في زردة "جدّي بويفلاحن".

توجد قبة الوالي الصالح على الضفة العليا للطريق وبعدها مباشرة ساحة كبيرة تحدها شجيرات. رغم أنها كانت تغصّ بالنساء لم يمنع دخول الرجال إليها، فهناك من يأتي بفنجان قهوة لأمه أو برغيف "لَسْفَنْجْ" لابنته. كُلِّف رجُل من المرابطين بالإشراف على مكان النساء هذا، يروح ويجيء بينهن كأنه "شامبيط"[4]... إنه عاري الرأس يرتدي جبة قصيرة لا تتعدى ركبتيه ويلوح بعصا غليظة والعرق يتصبب من جبينه، يخاطب النساء يخشونة وتهديد لكن مهما فعل فهن مستمرات في الشجارات والسرقة ويشتكين إليه: هنا تسمع البكاء هناك يتعالى صوت استغاثة... إنه يؤدي أصعب مهمة في تلك الزردة.

حتى أن أحد الشبان في عمر راعي المعز الذي التقيته من قبل، غافل ذلك "الشامبيط" وتوغل في جموع النساء وأخذ يبيع للعجائز علب الكبريت التي أخفاها تحت برنوسه. دخل معهن في الحديث عن ثمن سلعته مفسرا غلاءَها بكونه يبيع لهن " مارشي نوار"[5].

هكذا، أظن أن السبب في الوصول إلى هذه الحكاية يعود إلى ذلك الكلام الموزون والمنظوم على قالب الشعر الذي كانت تغنيه النسوة. لكن بادئ ذي بدء، قمت بزيارة قبة الولي الصالح التي لم أكن قد فكرت فيها عندما قررت السفر... لو كان الأمر كذلك لجئت في أي يوم عادي لا يكثر فيه الناس مثل ما هو عليه الحال في يوم الزردة، فالمكان غاصّ بالزوار. لحسن الحظ كان وقت زيارة النساء في الصبيحة ولكن حتى الرجال يتزاحمون أمام باب القبة. كان المقدم واقفا أمامه وفي يده عصا هو أيضا، لقد كان نوعا ما خجولا: لم يكن يدفع الناس للإسراع في الزيارة، كان يقول لهم فقط ينبغي لكل من يدخل من الباب الأول أن يضع "الوعدة"[6] في الصندوق الصغير؛ يلقي نظرة سريعة على الشيخ ولالاّ فطيمة ثم ينصرف، دون إطالة، من الباب الثاني ليفسح المجال لغيره...".

جاء دوري فدخلت من الباب الأول. ذكّرني المكان بيوم زرت قبة سيدي عبد الرحمان بالجزائر: نفس الرائحة شممتها في قبة الشيخ أحمد وعْلي. لقد اكتشفت أن في منطقتنا أشياءَ متقنة الصنع، ففرحت وأحسست بالفخر والاعتزاز لكون بلادي تضاهي البلدان الأخرى في العمل المتقن. ما أراه في القبة من إنجاز أناس حرفيين ذوي الخبرة العالية والذوق الرفيع. ربما أتوا بهم من الجزائر أو من تونس أو من المغرب، خصيصا لصنع قبة الولي الكبير.

الإكثار من رقع القماش وقطع الأثاث التي لا معنى لها ليس هو المهم وإنما حسن اختيارها وكيفية عرضها وترتيبها بدقة، الأفضل أن يقتصر الديكور على ما هو ضروري. جدران الحجرة مطلية بطلاء برّاق مستورد من بلاد بعيدة ومجتلب بثمن غال. ألصقت أفرشة مصنوعة من الحلفاء ابتداء من سطح الأرض نحو الأعلى على حوالي طول قامة رجل متوسط، هي أيضا مستوردة من الخارج. في وسط السقف تتدلى مصابيح زجاجية على شريط عريض فيها أكثر من ثلاثين جعبة مخصصة للشموع لكن لم تشعل منها سوى خمس أو ست شمعات فقط، وكانت كافية لإضاءة الحجرة لأن كل ما فيها برّاق ينعكس على سطحه الضوء. يبلغ ارتفاع الصندوق الذي يمثل مدفن الشيخ حوالي قامة رجل، كله مغطى برداء[7] ثمين مزين بألوان متناغمة مزجت بذوق وإتقان.

بعد أن وضعت نقود "الوعدة" في صندوق صغير لاصق في الجدار المقابل للمدفن، أمسكت بطرف الرداء الذي يغطيه، قربته من شفتي ثم لثمته: إنه من الحرير السميك الثقيل الوزن. تحت السقف مباشرة صففت بيض النعام حول شريط الشموع المتدلي، كل منها بحجم رأس إنسان تزيد بلمعانها في إضاءة المكان. علقت على الجدران حوالي أربع أو خمس لوحات يزينها خط عربي مسطر بأحرف ذهبية اللون: بذلت جهدا لاستنطق ما هو مكتوب ولم أفلح، فقراءتها صعبة للغاية. سمعت بالقرب مني رجلا يقول لرفيقه " جاؤوا بهذه الألواح من بيت الله الحرام"، مضيفا: انظر، هذا ضريح لالاّ فاطْمة، كانت قد أوصت ألا يوضع لها مدفن من خشب". وضع على ضريحها الرخام الأبيض مثل الذي فرشت به أرضية المقام؛ حتى الشاهد المنتصب عند رأسها من نفس الرخام الأبيض كتب عليه بأحرف عربية.

بالقرب من الباب الثاني امرأتان جالستان قرب مدفن الشيخ، دون شك أنهما مكثتا هناك خفية عن المقدم. أمسكت إحداهما بالرداء وأخذت تترنح برأسها من الأمام إلى الخلف ومن الخلف إلى الأمام وهي تتمتم بالدعاء في خشوع. ظهرت لي أخرى تمسح آجر الأرض بيدها وتجمع حفن الغبار وتضعها في كيس صغير من القماش وتخبئه في جيب جبتها.

لمحت في إحدى الزوايا عمودا كبيرا يزيد طوله عن قامة رجل، يتأرجح شمالا ويمينا في حركة منتظمة موزونة على إيقاع تاك، تاك، تاك، ينحدر من لوحة زجاجية تكاد القطعة المعدنية اللامعة في مؤخرته تلامس أديم الأرض: إنها الساعة الحائطية الكبيرة، كنت أتساءل أهي جزء من الديكور المصمم من أصحاب الصنعة الذين قاموا بتهيئة المكان أم جلبها المقدمون فيما بعد؟ مهما كان، فهل للزائر من حاجة إلى حساب الوقت في هذا المكان الذي يثير فضوله ويغذي خشوعه؟ لست أدري....

كل شيء في هذا المكان منسجم: الرائحة، الضوء، السكوت أو التمتمة، أضف إلى ذلك إيقاع تكتكة الساعة؛ وما يتوج الكل: الشعور بوجود الشيخ، بالرغم من أن عظامه نخرت تحت الثرى منذ قرون قد يتخيله الزائر في مدفنه تحت الرداء، مستلقيا، واضعا ذراعيه مربعتين على صدره، كأنه غارق في نوم عميق، فقط لا يتنفس... إنه نائم نوم من فارق الحياة.

غادرت الهيكل على أعقابي دون أن أُدير ظهري لضريح الشيخ، مقبّلا رخام عتبة الباب الثاني، وما إن أدرت وجهي عن الهيكل حتى وجدت نفسي في أجواء العرس على وقع الطبل ولحن المزمار وصخب حشود الناس.

في تلك الآونة تذكرت التبغ: "أشكرك جزيل الشكر يا **نيكو**" (نيكو هو أول من ابتكر التبغ) وتلقائيا توجهت أصابعي إلى علبة التبغ واصطفت لفافة أشعلتها واستنشقت دخانها بلهفة الأعرابي الذي يعثر على الماء في الصحراء المحرقة، تفتحت عيناي واسترجعت إحساسي التام بالواقع، فكرت أن أتوجه إلى طريق السيارات للبحث عن وسيلة النقل لأذهب إلى مدينة لخميس. لكن ما إن سمعت صوت النساء ينشدن أقوال الذكر حتى غيرت قراري.

كنت في تلك الفترة مشغوفا بكتابة كل ما أسمعه من شعر وأقوال مأثورة وحتى ما يجول في خاطري من أفكار؛ كنت قد اكتشفت الكتابة بالقبائلية فجيوبي لا تخلو من قطع أوراق مكتوبة ولم يخف عني أن لدى النساء مخزونا وافرا من القصص والشعر والأمثال اقتربت قدر المستطاع من "الخونيات"[8] اللواتي أحاط بهن جمع غفير من النساء والرجال لسماع مديحهن فأخذن ينشدن أجود ما جادت به قريحتهن.

تتكون الفرقة من حوالي اثنتي عشر امرأة منقسمات إلى صنفين، لمحت في الصنف الأول المرأة التي تملي الأشعار على نساء صفها فينشدنها ثم تكررها نساء الصنف الثاني.

أعجبتني كثيرا تلك المدائح وأظن أنني لم يسبق لي أن سمعتها من قبل. تبدو لي الشاعرة محترفة ولها رصيد من الأشعار العالية الجودة. إنها لا تنفك تمسح وجهها المتصبّب عرقا بمنديلها وتتكلم مع زميلاتها في الأوقات التي يكرر فيها الصف الثاني مديحهن، وكان وجهها منبسطا لا تفارقه الابتسامة. تركتهن بعد أن نلت نصيبي من شعرهن الجميل ثم اقتربت من شجرة غير بعيدة من القبة فاستندت إلى جذعها. ناديت القهواجي فأتاني بفنجان قهوة ثم أخرجت أوراقي لأنقذ من النسيان بعض ما سمعت من الأشعار، فلا يمكنني أن اعتمد على ذاكرتي.

بادرت رجلا بالكلام، لقد لاحظت عليه سمات كثيرة تدل على أنه من أبناء تلك القرية: أسند ظهره إلى جذع شجرة جاثيا وفي يده مقبض القادومة[9]، لم يرتد برنسا وكان يبدو كمن عاد من حقله في آخر النهار قاصدا بيته فاستوقفته بهجة الزردة. لا أعرف اسمه الحقيقي – سأدعوه سليمان.

في الوقت نفسه رأيت جماعة من الشبان من سلالة الشيخ خرجوا من دار المرابطين، كانوا ثلاثة أو أربعة متوجهين نحو إحدى السيارات المتوقفة على حافة الطريق.

كانوا يرتدون الزي الفرنسي مفصّلا على مَقاس كل منهم، رؤوسهم عارية شعرهم مصفف ومقسم إلى قسمين مع شيء من التبعثر الذي يدل على أن ذلك التصفيف ليس من باب التبختر بل هو شيء عادي بالنسبة إليهم، وحتى البدلات الأنيقة كانوا لا يأبهون بها، فهي دون شك لباسهم اليومي العادي وليس فقط في المناسبات.

أعمارهم تتراوح بين عشرين وخمس وعشرين سنة، وكانت تظهر عليهم سمات أهل المدينة وكأنهم مجرد ضيوف في بيت أهلهم القروي. فسحوا المجالس للشاب الذي يرتدي برنسا ويظهر أكبرهم سنا – ثم دلفوا إلى السيارة التي انطلقت بهم.

نظرت إلى سليمان وسألته:

- يظهر أنهم من أحفاد الشيخ؟

أجاب بحركة رأسية تدل على "نعم" وفهمت أن الرجل ممن لا يكثرون الحديث وكنت آمل أن آخذ عنه بعض الكلام المفيد من أمثال أو أشعار... فلم يشجعني صمته، وعدت إلى أوراقي أرتبها وانهمكت في الكتابة. فإذا بالرجل يقترب مني واضعا قادومته جانبا وأخذ ينظر إلى ما أكتبه بفضول، فقال:

- رأيتك تسترق السمع فيما تقوله الخونيات ثم تكتب... أتسجل ما يقلن؟

أجبته بنعم هازّا رأسي أنا أيضا بالتوكيد. وهنا فهمت أنه لن يفلت مني... أضاف:

- إنك تكتب بالعربية؟ فأجبته:

- لا!

فقال:

- إذن بالفرنسية؟

فقلت له:

- لا!

لكن بدا لي كمن يشكك فيما أقوله فاستدركت الأمر قائلا بلهجة جدية:

- بالقبائلية!

تأكد من أنني جاد فيما أقول وأنا فهمت أنه لا يعرف القراءة والكتابة، فهو لا يميز بين الحروف العربية والحروف الفرنسية. هو ذا الشخص الذي أبحث عنه... أخذت بكل اطمئنان وبصفة عشوائية ورقة من بين السبع والسبعين ورقة التي كنت أحملها معي، دون شك الأبيات المكتوبة عليها من شعري الخاص لكن لا حرج في أكذوبة بيضاء، فقلت له:

- استمع إلى هذه الأشعار، إنها من سي محند ومحند[10]!...

وبدأت أقرأ ما في الورقة. ما إن انتهيت حتى تنهد وهو يقول:

- رحمك الله!

هذا ما كنت أتمناه، ولكي أغلق كل أبواب الشك قرأت له إحدى القصائد التي سجلتها في حينها.

"يا شيخي أترجاك

يا أحمد وعلي يا أسد

انفعنا ببركتك

واعف عنا إذا ما أسأنا"

كان قد حفظ كل القصيدة فأوقفني عند هذه الأبيات. انتظرت بشوق ما يتفوه به من أشعار أو غير ذلك لكنه بدا لي منشغل البال، يتأمل أغصان الشجرة ويتمتم محدثا نفسه: "وانفعنا ببركتك... وانفعنا ببركتك ... واعف عنا...". كنت أمْعن فيه النظر: إنه ليس أكبر مني سنا رغم لحيته وهيئة الفلاح الفقير التي يظهر عليها، فلا يليق بي إذن أن أناديه بلقب "دادا"[11].

يبدو من هيئته أنه ممن سافروا وجابوا بلدانا وأمصارا؛ لم يكن متعلما لكنه حنكته التجربة، وعلمته الحياة، دون شك سمع الكثير وعانى الكثير... الممارسة هي التعليم الحقيقي أما ما عدا ذلك فمجرد حبر على ورق، كمن يرسم جبلا... لقد تعلمت الكثير في تلك الأمسية التي قضيتها رفقته.

استدار بوجهه إليّ وقال:

- أنت لست من هنا، رغم أننا كلنا من طينة واحدة، لكن... هناك اختلاف. صحيح أنني أتكلم وأمزح مع العديد من رجال القرية لكن الحديث عن شأن الشيخ يقتصر بيننا على ذكره كوليّ جبلنا وأبناؤه اليوم لا يكنّون لسكان القرية سوى الخير. من المفروض إذن ألا نحرج أنفسنا بالبحث عن جذوره: من أين أتى؟ ما هي قصة حياته، وما إلى ذلك...

قلت له:

- هذا صحيح، لقد سبقتَ بالقول إننا كلنا من طينة واحدة. أقسم لك أنني شخصيا في منطقتنا... قاطعني قائلا:

- إنك لا تعرف شيئا عن حياة الأولياء الذين تقسم بهم! أعرف ذلك: إنك لا تختلف عن الآخرين، لذا أردت أن أخبرك عن حياة شيخنا **أحمد وعْلي.** أفعل ذلك في الحقيقة لأنني أراك تقرأ وتكتب بالقبائلية وأنك تكتب الأشعار التي تقال عن الشيخ... إيه! لاسيما عندما يقولون "انفعنا ببركتك واعْفُ عنا إذا أخطأنا"... إيه! أرأيت؟ ...

استوى الرجل في جلسته وثبت قادومته قربه، وأنا كذلك أحسست بيدي تتوجه تلقائيا نحو جيبي وتتلمّس "قبة نيكو". استللت منها سيجارة واحدة ومددت له العلبة فأخذ منها واحدة هو أيضا؛ اشعلت له ثم لنفسي، فقال:

- عندما يلتقي اثنان لا يعرف أحدهما الآخر إطلاقا وهما على يقين ألّا يتجدد اللقاء بينهما مرة أخرى يصارح كل منهما صاحبه ويكون كلاهما صادقا. من جهتي أصارحك أن كل ما يُقال وكل ما يكتب لابد وأن يُستغَلّ يوما ما ويطَّلع عليه الغير وإلاّ فلا طائل في الحديث ولا جدوى في الكتابة.

لذا أنا لن أطلب منك كتمان ما أخبرك به عن الشيخ من الأسرار... لا هذا إن قلته لك فهو من باب الخطإ، خاصة وأنك تكتب بالقبائلية... فكرت ربما سيكون للقصة تأثير وتبقى للأجيال القادمة يستفيدون منها.

على كل، حتى اسمي لا حاجة أن أعرّفك به، المهم أن يكون فيما أقوله فائدة، وأنت بعد ذلك افعل به ما تشاء... أما أن يكون ما أقوله حقيقة أو خيالا، أضفت إلى الحكاية أم أنقصت منها، فهذا لا يهم طالما لا تربطنا أي علاقة مادية نفعية: إن أردت تصوّر أنني سردت لك إحدى قصص ألف ليلة وليلة ثم رجعت إلى بلدتك وأنا انصرفت إلى منزلي ... أليس كذلك؟ ...

هذه المقدمة جعلتني أتشوّق أكثر إلى سماع قصة الشيخ. انصتّ إلى السارد باهتمام بالغ وحاولت فهم شخصيته: إنه يحاول أن يحط من شأن ما يقوله لكن بالعكس هذا أثار فضولي أكثر وجعلني أعير كلامَه أهمية أكبر. قال:

- أرأيت هؤلاء المرابطين الذين انصرفوا على متن سيارة، إنهم يزاولون دراستهم في الجزائر أو في مدن أخرى ليصبحوا أطباء أو مهندسين أو محامين ما عدا الأكبر منهم، إنه "قايد"[12] منطقتنا. الأصغر منهم سنا قد لازم البيت ولا يغادره، وفي الشهور الأخيرة يقال إنه بدأ يتكلم في الغيب! اختل عقله قليلا، ربما سيكون خليفة لجدّهم الشيخ الوالي الكبير. من يدري؟

المشكل أن جدّهم الشيخ أحمد وعلي لا أحد يعلم الفترة التي عاش فيها ولا متى توفي: منذ مائة، مائتين أو ثلاثمائة عام...لا أحد يدري بالضبط. أنا شخصيّا كان أبي -رحمه الله -يقول لي: «الشيخ؟ إنه عاش في قديم الزمان في زمان بعيد..." أبوه نفسه كان يقول له نفس الكلام... على كلّ، الحديث عنه ينتقل من جد إلى جد، هذا ما كل في الأمر! أستطيع أن أجزم لك أنه حتى من بين أولئك الشبان المرابطين أنفسهم لا يوجد من يعرف شيئا عنه حق المعرفة...

لذا، لكي تعلم كيف توصلت إلى معرفة حياة الشيخ، عليّ أن أقص عليك حكاية أخرى قبل حكاية الشيخ...

إبان سنين خلت، كان من بين مرابطي المنطقة العليا من القرية رجل اسمه سي شريف، من عائلة آث سي بلقاسم، كنا صديقين كأخوين تربطنا محبة عميقة. أمضينا معا بعض الوقت في فرنسا وكان كل منا يساعد الآخر، لاسيما أنني وقفت إلى جانبه وساعدته في بعض المواقف الحرجة. وفي النهاية عندما التقينا هنا في البلاد أستطيع القول إنه يضعني في مرتبة أعلى من تلك التي يضع فيها ذويه. وبسبب أعمامه والمشاكل التي أثارتها قسمة الميراث معهم، ما يزال إلى يومنا هذا في فرنسا، ولا أعلم إن هو ميت أو على قيد الحياة...

في أحد الأيام، بينما كان ينقّب في الوثائق القديمة المودعة في المنزل، أخذ يخرجها من صناديقها ومن جوف "الكوفية"[13] فإذا به يعثر على كراس قديم نوعا ما ممزق، حدثني عنه ورأيته وكان قد انتهى من قراءته. أخبرني بما فيه، وأنا اليوم أعيد على مسامعك ما قاله لي.

كان الكراس مكتوبا بخط أحد أجداده المسمى سي بلقاسم وهو إمام قرية تيزي ن تلفكوث هذه عندما وطأ أرضَها للمرة الأولى الشيخ أحمد وعْلي هذا.

وما يجعلنا نصدق ما هو مكتوب في هذا الكراس كون سي بلقاسم يحكي فيه قصة حياته ويعترف ببعض الأمور التي كان يختلف فيها مع ولي الجبل. يبدو أن سي بلقاسم قد تفطن لحقيقة الشيخ، وربما في آخر المطاف أصبحا صديقين حميمين وبالتالي كان يسجل كل ما كان يعرفه عنه.

وأنا الآن أعيد عليك الحكاية بطريقتي الخاصة، كما بلغتي وحسب ما فهمته، سواء أكانت ملائمة أم لا. أما فيما يخص حقيقة ما حدث، فبودّي لو أستطيع أن أتلو عليك الحكاية كما كانت مكتوبة...

الهوامش

[1] عرس ديني يلتقي فيه جمهور غفير من الزوار في مقام ولي صالح، تنشد فيه المدائح الدينية

[2] يقصد اسم ولي، عبارة "بويفلاحن" تعني بالقبائلية "ذا الفلاّحينَ"، ربما بمعنى أن هذا الولي يذود عن الفلاحين

[3] اسم القرية التي هاجر إليها بولغطوط، ولي الجبل، وعاش فيها ودفن فيها.

[4] من الكلمة الفرنسية « champêtre » : الحارس البلدي

[5] من الفرنسية «marché noir»: السوق السوداء

[6] النقود التي توضع في صندوق صغير كصدقة من الزائر للولي الصالح للتبرّك به

[7] قطعة من القماش تغطي ضريح الولي الصالح، يلثمها الزوار التماسا لبركة الولي.
[8] مفرد الكلمة **ثاخونيث**، المذكر **أخوني**، الرجال أو النساء الذين ينشدون أشعار **الذِكْر** في مناسبات دينية
[9] نوع من الفؤوس الصغيرة الحادة الجهتين التي يقطع به الفلاحون أغصان الأشجار.
[10] شاعر قبائلي مشهور عاش في أواخر القرن 18، توفي سنة 1906
[11]. **دادّا:** عبارة احترام تقال عموما لمن هو أكبر سنا من المتكلم.
[12] القايد هو الرجل الذي نصبته السلطات الاستعمارية كحاكم لعرش معين.
[13] وعاء من صنع محلي في منطقة القبائل، كبير الحجم مصنوع من الطين، يستعمل لخزن الحبوب.